الجمهور ـ ١٣ ـ

وقال صاحب سرّ (م) باشا : كان من بعض عملي في الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أراقبَ الحركاتِ والسَّكنَاتِ ، وأبثَّ العيونَ ، والأرصادَ ، وأعرفَ المضطَرَب والمنقلَبَ في أيّام الفِتَن ، ونوازِلِ المحنةِ ، محافظةً على الأمن ، ومبادَرةً لما يُتوقَّع ؛ فكنت كالمرصدِ المهيَّأ بآلاته لتدوين حركاتِ الزَّلازل .

وانتهى إلينا يوماً أن راجفةً من هذه الزَّلازل سترجُف بفلانٍ من أهل الرأي الحرّ ؛ الَّذي يَستقِلُّ ، ولا يُتابِعُ ، وينتقد ، ولا يُحابي ، ويُصرِّح ، ولا يُجَمْجِمُ[1] ، وأنَّ قوماً ثوَّروا عليه الغُبارَ الآدميَّ من العامَّة ، وأشباهِ العامَّة ، وأنَّهم يتحيَّنون الوقتَ لتوجيه المكيدةِ له في شكلها المفترسِ من هذا الجمهور النَّاقم .

أمَّا فلان هذا ؛ فرجلٌ سياسيٌّ عنيدٌ أضاع الحقَّ كلَّه ؛ لأنَّه لا يرضى بنصف الحقِّ . . . وكلمتُه في السِّياسة كأنَّما تُلقَى على لسانه من الغيب ؛ فلا يتحوَّل عنها ، ولا يملك أن يتكلَّم إلا بما يتكلَّم ؛ وقد ذهب بصوته : أنَّه في قومٍ لا يسمعون إلا ما أرادوا ، فهو بينهم كالحقِّ المغلوبِ : لا يموت ؛ لأنَّه غيرُ باطلٍ ، ثُمَّ لا يحيا ؛ لأنَّه لا ينتصر . وقد كان رجلاً كالمصباح الوهَّاج ، فألقَوا عليه الغِطاء ، فإذا هو في طبيعته ، ويبدو للنَّاس بغير طبيعته ، وتركه رأيه الحرُّ الصَّريحُ كالنَّبيِّ المكذَّب يُرَدُّ صِدقُه ؛ لا لأنه غيرُ صدْق ، ولكن لأنَّه غيرُ مستطاعٍ ، أو غيرُ ملائمٍ .

ومن آفاتنا نحن الشَّرقيين أنَّنا نستمرئ العداوةَ ، وننقادُ لأسبابها ، ونتطاوَعُ لها تطاوُعَ الصِّغار بأنفسهم لما في أنفسهم ؛ كأنَّ المستبدين الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائعنا ؛ فَرَدُّ الفكرِ على الفكر في مناقشةٍ تَجرى بيننا ـ لا يكون من دَفْع الحقيقة للحقيقة ، ولكن من رد الاستبدادِ على الاستبداد ، أو من توثُّب الطُّغيان على الطُّغيان ؛ فهو الثَّلْبُ ؛ والطَّعنُ ، والتَّجريح ، وهو الجَفْوةُ ، والخصومةُ ،

(١) « يجمجم » : جمجم فلانٌ : لم يُبِنْ في كلامه . وجمجم الشيءَ في صدره : أخفاه ، ولم يبده .

واللَّدَد[1] ، وهو المنازَعةُ ، والعنفُ ، والتَّحامل ؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ ، وفسادٌ ، وسقوط . والجدالُ بين العقلاء يبعثُ الفكرَ ، فينتهي إلى الحقِّ ، ولكنَّه فينا نحن يَهيجُ الخُلُق ، فينتهي إلى الشَّرِّ ، والرَّدُّ على عظيمٍ منَّا كأنَّه يردُّ على منزلته في النَّاس لا على منزلته في الرأي ، وكشفُ الخطأ عندنا تعييرٌ بالخطأ ، لا تبصيرٌ بالصَّواب ، واسْتِلابُ الحجَّةِ من صاحبها ، وإفسادُها عليه كاستلاب المِلك من مالكه وطردِه منه . . .

ومن ثَمَّ كان الدِّفاعُ بالمكابرة أصلاً من أصول الطَّبيعة فينا ، وكان الاضطهادُ حجَّةً للحجَّة العاجزة ، وكان الإعناتُ دليلاً للدَّليل ؛ الذي لا ينهضُ بنفسه ، ومتى اعتَبر كلُّ إنسان نفسَه إمبراطوراً على الحقِّ . . . فلا جَرَمَ لا تَردُّ كلمةٌ على كلمةٍ إلا بحربٍ .

* * *

قال صاحبُ السِّرِّ : وكَبُرَ الأمرُ على الباشا ، فجمع رؤوسَ المؤتمِرين بذلك الرَّجل الحرِّ ، وأخذ يقلِّبهم تقليبَه بين التودُّد ، والملاطفة ، وقال لهم فيما قال : إنَّ فضيلة الجمهور هي التي تضمن تربيةَ الفضيلة ، وحفظَها ، وغَلَبَتَها على الرَّذائل ، وإنَّ كلَّ صحيحٍ يكون فاسداً إذا لم يكن الجمهورُ صحيحاً ، وإنَّ غيرَ العقلاء هم الذين يقبلون الحقيقةَ في يومٍ ثمَّ يرفضونها هي ذاتَها في يومٍ آخر ، فإن ذهبتَ تجادلهم ، وتحتجُّ عليهم بأنَّهم قبلوها ، قالوا : هذا كان أمس . . . فكأنَّما الفاصلُ بين زمنين يجعل الشيءَ الواحدَ ضِدَّين .

ثم سألهم : ما هو ذنبُ الرَّجل ؟ فقال منهم قائل : إنَّه خارجٌ علينا في الرأي . فقال الباشا : إنَّ المعنى في أنَّه يخالفكم هو أنكم أنتم تخالفونه ؛ فقد تكافأت النَّاحيتان ، وخلافٌ بخلافٍ ؛ فما الذي جعل لكم حقَّ ردِّه عن الرأي دون أن يكون له مثلُ هذا الحقِّ في ردِّكم أنتم ؟

قالوا : إنَّنا الكثرة . قال الباشا : يا أصدقائي ! إنَّ خوفَ الكثرة من رأي فردٍ ، أو أفرادٍ هو أسوأ المعنيَين في تفسير رأيها هي ؛ وعشرةُ جنيهات لا تعبأ بالجنيه الواحد ، فإنَّها تستغرِقه ؛ بَيْدَ أنَّ هذه ليست حالَ عشرة قروش يا أصدقائي . . . !

(١) « اللَّدد » : اشتداد الخصومة ، والجدل مع الميل عن الحق .

نعم إن قَطْعَ الخلاف ضرورةٌ من ضرورات الوطنيَّة ، ولكن إذا كان الأمر في ظاهره ، وباطنه كالخلاف في أيِّهما أطولُ : العَصا ، أو المِئذنة . . . ؟ فذلك جدال محسومٌ من نفسه بلا جدالٍ .

إنَّ أساسَ انخذالنا نحن الشَّرقيِّين في قلوبنا ؛ إذ لا نعتبر المعانيَ العامَّةَ إلا من جهة أنَّها قائمةٌ بالرِّجال ، ثمَّ لا نعتبر الرِّجالَ إلا من ناحية ما في أنفسِنا منهم ، ثمَّ لا نعتبر أنفسَنا إلا من جهة ما يُرضينا ، أو يغضبنا ، وقد لا يغضبنا إلا الحقُّ والجِدُّ ، وقد لا يرضينا إلا الباطلُ ، والتَّهاون ، ولكنَّا لا نبالي إلا ما نرضى وما نغضَب .

لستم أحراراً في أن تجعلوا غيركم غيرَ حرٍّ ، فإن يكن الرَّأيُ الَّذي يعارضكم رأياً حقّاً ، وتركتم مُنابذَتَه ؛ فقد نصرتم الحقَّ ؛ وإن يكن باطلاً ؛ فإظهاره باطلاً هو برهانُ الحقِّ الَّذي أنتم عليه ؛ ولن تجرِّدوا أحداً من اختيار الرَّأي إلا إذا تجرَّدتم أنتم من اختيار العدل ، فإن فعلتم ؛ فهذه كبرياء ظالمةٌ ، تدَّعي : أنَّها الحق ، ثُمَّ تدَّعي لنفسها حكمه ، فقد كذَبتْ مرَّتين .

اسمعوا أيها السادة ! قامت بين اثنين من فلاسفة الرَّأي مناظرةٌ في صحيفة من الصُّحف ، وتسَاجَلا في مقالاتٍ عِدَّةٍ ، فلمَّا عجز أضعفُهما حجَّةً ، وكَعَمهُ[1] الجدال ، كتب مقالته الأخيرة فجاءت سقيمةً ، فلم ترضه ، فبيَّتَها ، ونام عنها على أن يرسلها من الغَداة بعد أن يُردِّد نظره فيها ويصحِّحَ آراءه بالحجج التي يُفتح بها عليه . قالوا : فلمَّا نام ؛ تمثَّلت له المقالة في أحلامه جسماً حيّاً ، موهوناً ، مترضِّضاً ، مخلوعاً من هنا ، مكسوراً من هناك ، مجروحاً ممَّا بينهما ، ثم كلَّمتْه ، فقالت له : ويحك أيها الأبله ! إنْ أردتَ أن تغلب صاحبك ، وتُسكِتَه عنك ، فاحملْ مقالتك إلى رأسه في العصا ، لا في الجريدة .

* * *

قال صاحب السِّرِّ : وضحك القومُ جميعاً ، وأذعنوا ، وانصرفوا مقتنعين ، قد خَلُصَتْ دِخلتُهم لذلك الرَّجل الحرِّ ، وتنصَّلوا من جريمةٍ كانت في أيديهم ، وما جاء الباشا بمُعْجِزٍ من القول ، ولكنَّ تصويرَه للمسألة كان حلاً لها في نفوسِهم . فلمَّا أدبروا تنفَّس الباشا كأنَّما خرج من البحر ، وكان يتعاطى إنقاذَ غريقٍ ، ويُعاني

---

(١) « كعمه » : كَعَم البعيرَ : شدَّ فاه ؛ لئلا يعضَّ ، أو يأكل .

فيه حتَّى نجا ؛ ثمَّ قال لي : إنَّ هذا كان جواباً عن شيءٍ في أنفسهم ، ولكنَّه هو سؤالٌ عن شيءٍ في أنفسنا : ما الذي يجعل النَّاسَ عندنا يخشَون المعارضة في الرأي الوطنيِّ حتَّى إنَّهم ليجازُون عليها بهذه العقوبة الشَّعبيَّة المنكرة ؟ وما بالُهم لا يعطون الرأي حكمَه ، وحقيقتَه ، بل يعطونه من حكم أنفسهم ، وحقائقها ، وشهواتها المتقلِّبة ، حتَّى لترجعُ الفروقُ الضَّعيفةُ المتجانسةُ في أبناء الوطن الواحد وكأنَّها من الخلافِ والمبايَنة فروقٌ جنسيَّةٌ ؛ كالَّتي تكون بين إنسانٍ من أمَّةٍ ، وإنسانٍ من أمَّةٍ أخرى تعاديها .

قلت : إنَّ رأي الكثرة قانونٌ يا باشا !

قال : هذا صحيحٌ ، ولكن بشرطين لا بشرطٍ واحدٍ : الأوَّلُ ألا يخرجَ الرَّأيُ على القانون ، والثَّاني ألا تكونَ الحقيقةُ في الرأي الذي يناقِضه ، ومحاولة إكراهِ المعارضة نقضٌ للشَّرطين معاً ؛ ثمَّ إنَّ أساس الوطنيَّة سلامةُ القلوب ، وصفاءُ النيات ، واستواء الموافق والمخالف في هذا الحكم ، ومتى وقع الخلاف بين اثنين ، وكانت النِّيَّة صادقةً مُخْلَصَة ، لم يكن اختلافُهما إلا من تنوُّع الرَّأي ، وانتهيا إلى الاتِّفاق بغلبة أقوى الرَّأيين ، ما من ذلك بدٌّ .

الحقيقة يا بنيَّ ! أنَّ الجماهيرَ الشَّرقيةَ ليست في تربيتها من الجماهير السِّياسيَّة التَّي يُعتدُّ بها ؛ إذ لا تزال في أوَّل عمرها السِّياسيِّ ، وبهذا السَّبب وحده كان اختلافُ الكبراء في السِّياسة لا يشبهه إلا نزاعُ الخصمين بغير شهودٍ ، ولا قاضٍ نافذِ الحكم ، فهو نزاع قوَّةٍ تفوز بوسائلها ، لا نزاعُ حقٍّ يَسْتعْلي بأدلَّته .

وهذه المجالسُ النِّيابيَّة الشَّرقيَّة كلُّها صُورٌ ممثَّلةٌ جافَّةٌ ، منقطعةُ النَّماء من أسبابها ، كالفرعِ المقطوعِ من الشَّجرة ، وإنَّما يتنضَّرُ الفرعُ ، ويُثمِر أثمارَه ؛ إذا قام بشجرته لا بنفسه ، وما شجرةُ الفرعِ السِّياسيِّ إلا الجمهورُ السِّياسيِّ .

فسبيلُ الإصلاح في كلِّ مملكةٍ شرقيَّةٍ أن ينهض أهلُ الرَّأي من كلِّ مدينةٍ فيها بين عالمٍ ، وأديبٍ ، ومحامٍ ، وسَرِيٍّ ، ومن كان بسبيلٍ مِنْ هؤلاء ، فيجعلوا لمدينتهم دارَ ندْوةٍ للاجتماع ، والبحث ، والمشُورة ، وقول : (نعم) بالحجَّة ، وقولَ : (لا) بالحجَّة . ثمَّ يعلنون ذلك في جمهورهم ، وينزلون منه منزلةَ الأستاذ ، والأب ، والصَّديق في تعليمه ، وهدايته ، وإرشاده ؛ وتتَّصل هذه الدُّورُ في كلِّ مملكةٍ بعضُها ببعضٍ ، وتنتهي بالمجالس النِّيابيَّة . وبغير ذلك لا يُملأ

الفراغُ ؛ الَّذي نراه خاوياً بين الشَّعب والحكومة ، وبين الكبراء والجماهير ، وإنَّما أكثرُ مصائبنا من هذا الفراغ ؛ فهو الذي يَضيع فيه ما يضيع فيه ، ويختفي ما يختفي .

منَّا قومٌ موظَّفون في الحكومة ؛ لكن أين القومُ الَّذين تكون الحكومة نفسُها موظفةً عندهم ؟

* * *

(اعتذار) : بهذا المقال انتهت أحاديث الباشا ؛ فقد أنبأنا صاحب السِّرِّ : أنَّه سيكتم السِّرَّ .

* * *